الملا عثمان الموصلي

باسم عبد الحميد حمودي

ولد الملا عثمان عبد الله في الموصل سنة ١٨٥٤ ورعاه وهو صبي اعمى جار والده الحاج محمود سليمان العمري وهيأ له من يعلمه العلوم العربية والموسيقى، ثم رعاه ابرز رجال الموصل مثل الشيخ محمد الحاج حسن والشيخ محمد بن جرجس النورد والشاعر الاديب أحمد عزة باشا العمري الذي رعاه في بغداد.

عاش الموصلي حياة عريضة دخل خلالها قصر السلطان عبد الحميد قارئاً القرآن وصديقاً لابرز مشايخ الدولة العثمانية الشيخ (أبو الهدى) الصيادي والد السيد توفيق أبو الهدى رئيس وزراء الاردن زمن الملك عبد الله الأول.

جال الملا عثمان في الاستانة وحل في مصر حيث درس على يده الموسيقار كامل الخلعي والشيخ علي محمود استاذ زكريا أحمد والشيخ أحمد أبو خليل القبابي والنابغة سيد درويش الذي ظل يواصل الدرس على يديه حتى مغادرته مصر سنة ,١٩٠٩

كان الملا عثمان واحداً من عباقرة الموسيقى والغناء الديني وله دوره الكبير في تطوير المقام العراقي وتدريسه وكان الملا عثمان أحد ابرز الكتاب في الفن الموسيقي فقد أصدر في القاهرة مجلة المعارف التي صدر عددها الاول في ١٩/ مايس ١٨٩٧ مقتدية بفن الغناء وقد ذكره اكثر من مرجع ودراسة.

ولا يمكن لنا في هذا التقديم لجهد باحثين كريمين اشتهرا ببحوثهما الفولكلورية والتراثية ان نشير الى كل تجارب الملا عثمان وريادته في فنون الموسيقى والغناء وهما الاستاذان محمود العبطة ود. عادل البكري برغم ان مئات الدراسات الاخرى قد كتبت او صدرت عن الملا عثمان.

من العبطة نختار جزءاً من بحثه (عثمان الموصلي في بغداد) الذي اصدره عام ١٩٧٣ ومن البكري نختار جزءاً من كتابه (مع عثمان الموصلي) الذي صدر عام ١٩٧٣، وكان هذان الاصداران قد انجزا بمناسبة مرور نصف قرن على وفاة الملا عثمان في كانون الثاني عام ١٩٢٣ .

قيثارة النغم

د.عادل البكري

نشأ هذا النابغة محباً للموسيقى منذ نعومة إظفاره وقد اعجب مربيه محمود افندي العمري بصوته يوم كان طفلاً يقيم في داره مع اطفاله وهو كفيف البصر اذ يأخذ بالإنشاد بصوت مرتفع يبعث على النشوة والإعجاب مما جعل مربيه العمري يعهد به الى أساتذة يعلمونه اصول الإلحان، وعندما شب عن الطوق ورحل الى بغداد اتصل بالمغني رحمة الله شلتاغ المشهور بغناء المقامات، وكذلك بالحاج عبد الله الكركوكي وهما من أساتذة الفن في العراق في القرن التاسع عشر ودرس عليهما الغناء والموسيقى وقد اشتهر الشيخ عثمان بصوت دافئ بديع من طبقة غليظة حلوة وصفه الأستاذ محمد بهجة الاثري في مجلة لغة العرب (عدد تشرين الثاني عام ١٩٢٦) بقوله: كان صوتاً معبدياً ينعش الأرواح من كبوات الاتراح وجرساً غريضياً يخرس الأطيار في أعالي الأشجار، فلم يزل يعاني الصنعة حتى جاءت منه آية نسخت آية إبراهيم الموصلي فحلق طائر صيته في سماء العراق واصبح حديث المحافل والنوادي في الأصقاع والآفاق.

وقد عرف عن هذا الفنان انه كان اقدر من يضبط المقام ويميز بين الانغام ويدل على تباين الاصوات مهما تقاربت حتى انه يميز الوتر المختل عن بقية الاوتار اذا سمع وهو في الطريق عزفاً على عود وكان احد اوتاره غير محكم الضبط فيذكر اسم ذلك الوتر المختل، ولم يفعل ذلك سواء غير إبراهيم الموصلي احد كبار الموسيقيين في صدر الدولة العباسية فقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني في كتابه (الأغاني) ان إبراهيم الموصلي كان يميز اختلال الوتر من بين مجموعة الاوتار اذا عزفت عليه احدى جواريه.

وكان عثمان الموصلي يدوزن العود والقانون بنفسه ويعزف عليهما بصورة رائعة برغم ما في ذلك من صعوبة لمن فقد بصره وكان لا يستعمل عند عزف القانون العربات التي تستعمل لإخراج انصاف الارباع بل كان يتلاعب بأنامله وأطراف أظافره فيخرج النغمات سليمة شجية مما لم يسبق لغيره ان أتى بمثله، وكان يجيد استعمال الناي ويضرب على الطبلة بسرعة هائلة تدعو الى العجب ويتقن استعمال النوتة الموسيقية الغربية ويحفظ حروفها بالسماع ويخرجها عند العزف بإنصافها وارباعها في ذلك الوقت الذي قل من سمع فيه بالنوتة الموسيقية في بلادنا.

وفي تركيا كان عثمان الموصلي يتمتع بمنزلة رفيعة بين الفنانين الاتراك وقد عينته الحكومة العثمانية مدرساً للموسيقى في احدى مدارس العاصمة استانبول تقديراً لنبوغه وعلو كعبه في هذا الفن، وكان له كثير من المعجبين والتلاميذ من مشاهير الفنانين الاتراك كالموسيقار سامي بك والمغنية الشهيرة (نصيب) فأخذوا عنه فن الموشحات والفنون الموسيقية الاخرى التي مزجوها بالموسيقى التركية.

وبذلك اوجد هذا الفنان العبقري اسلوباً من النغم مازال الاتراك يعترفون به حتى الان ويطلقون عليه اسم (اسلوب الحافظ عثمان الموصلي) ويذيعون اغاني تركية على نمطه من اذاعاتهم بهذا الاسم وقد سجلوا بعضه على اسطوانات تباع في الاسواق.

كما ان لهذا الموسيقار قطعاً موسيقية كثيرة وضعها اثناء وجوده في تركيا وهي مسجلة الان في دار الاذاعة التركية في استانبول وقد اطلع عليها بعض الموسيقيين العراقيين وتعزف في دار الاذاعة المذكورة، نذكر منها قطعة موسيقية من نغم (شرقي نهاوند) اطلع عليها الموسيقار جميل بشير في احدى سفراته الى تركيا فنقلها كما هي واثبتها في كتابه المسمى (العود وطريقة تدريسه) ج٢، ص, ١٣٠

اما في مصر فقد كا الملا عثمان نجماً لامعاً بين اساطين الموسيقى والفن فقد التفوا حوله واعجبوا به وكان يتربع على عرش الموسيقى والطرب في مصر آنذاك المغني عبده الحمولي فكان الالتقاء بين الرجلين حافلاً حيث اعجب كل منهما بصاحبه وكانت بينهما صلات توثقت على ارهاف فني حتى انهما كانا يجتمعان الليالي الطويلة يستمع كل منهما الى صاحبه في حفلات موسيقية خاصة وما زالا كذلك حتى يدركهما الصباح.

ويذكر ادهم الجندي في كتابه (اعلام الادب والفن) ان عبده الحمولي اخذ عن عثمان الموصلي فن الموشحات ومزجها بالادوار المصرية وان الملا عثمان ادخل الى مصر نغمات الحجاز كار والنهاوند وفرعهما حيث كانت غير معروفة هناك.

وقد درس على موسيقارنا الكبير عدد من موسيقيي مصر المشهورين نذكر منهم الموسيقار كامل الخلعي وهو ملحن ومؤلف موسيقي اخذ عنه الموشحات التي على الاوزان التركية والشامية وقد اشار في كتابه (الموسيقى الشرقي) الى دراسته على عثمان الموصلي في عدة مواضع من الكتاب.

ومن الذين درسوا عليه كذلك الشيخ علي محمود مغني الأدوار المصرية والموشحات المشهور والذي تتلمذ عليه الملحن المعروف الاستاذ زكريا أحمد ومنهم كذلك الشيخ أحمد أبو خليل القباني وهو من اقطاب الموسيقى والمسرح في مصر وغير هؤلاء من الذين اخذوا عنه فنون الموشحات والإلحان.

ومن اشهر الموسيقيين المصريين الذين درسوا على عثمان الموصلي هو الموسيقار النابغة سيد درويش فقد التحق هذا الفنان في مطلع عام ١٩٠٩م بفرقة أمين عطا الله واخيه سليم عطا الله الفنية التي كانت متوجهة الى بلاد الشام لتقديم بعض الفعاليات الفنية فيها، وكان الشيخ عثمان في سوريا آنذاك في اثناء عودته الاخيرة من استانبول الى بلاده ومكثت الفرقة هناك عشرة اشهر اتصل سيد درويش خلالها بالشيخ الموصلي وظل ملازماً له طوال تلك المدة، وقد كان نجاح الفرقة في مهمتها ضئيلاً او معدوماً فرجعت الى مصر لتجند كفاءات فنية اخرى وتهيئ نفسها لرحلة ثانية بعد ثلاث سنوات ثم سافرت في رحلتها هذه وكان سيد درويش ضمن اعضائها هذه المرة أيضاً فقدمت فعالياتها في بلاد سوريا ولبنان وكان نجاحها احسن من المرة السابقة وكان سيد درويش في خلال ذلك يواصل دراسته على استاذه عثمان الموصلي الذي كان مازال مقيماً هناك وقد بقيت الفرقة مدة طويلة خلال عامي ١٩١٢-١٩١٣ استطاع فيها النابغة المصري ان يأخذ الكثير من فنون الموسيقى والموشحات من عثمان الموصلي وقد حفظ عنه كل ممتع رائع من الالحان مما جعله يتصرف كثيراً بالنغم ويدخله في اغان مصرية مبتكرة.

وقد اشاد المؤلفون المصريون الذين بحثوا في تاريخ حياة سيد درويش بالدور الذي قام به عثمان الموصلي في توجيه الموسيقار المصري وتزويده بالالحان التي اقتبس منها اغانيه بعد عودته من الشام.

ولندع الاستاذ محمد البحر وهو ابن الموسيقار سيد درويش يحدثنا عن اثر عثمان الموصلي في تعليم ابيه سيد درويش اثناء رحلته الأولى والثانية فقد قال انه (تعرف خلال الرحلة الأولى بالأستاذ عثمان الموصلي واخذ عليه من التواشيح ما استطاع حفظه في تلك الفترة القصيرة)، اما عن الرحلة الثانية فقد قال عنها انها الاسكندرية بعد ان امتلأت جعبته الفنية من فن الاستاذ عثمان الموصلي، وقد حفظ الكثير من الاغاني والموشحات).

وقد عرف ان لسيد درويش في مصر نحو ٣٨ موشحاً بعضها موشحات دينية في مدح الرسول وان هذه الالحان لم تظهر في فن سيد درويش الا بعد رجوعه من الشام بعد ان التقى عثمان الموصلي وهو استاذ الموشحات الاول في بلاد الشرق.

وهناك شك في نسبة هذه الموشحات لسيد درويش حتى من النقاد المصريين انفسهم كما جاء في احد المصادر المهمة عنه حيث يشير الى ان هذه الموشحات قد تكون مما اتى به سيد درويش في رحلتيه المشهورتين الى سوريا ولبنان بعد تعرفه الى الموسيقار الكبير عثمان الموصلي.

وجاء في هذا المصدر أيضاً قوله نصاً انه ليس غريباً ان يسجل سيد درويش نوتات ما حفظه من الموصلي بخط يده حفظاً عليه من الضياع والنسيان.

وقد استطاع سيد درويش ان يطور الموسيقى المصرية حتى بلغ بها المكانة الرفيعة وكان كثير من الالحان مما اقتبسه من استاذه الموصلي يأخذ شكلاً جديداً وينتشر بشكل اغان خفيفة في طول البلاد وعرضها مثل اغنية: (طلعت يا محلى نورها) التي كانت في الاصل موشحاً دينياً من نغم الجهاركاه مطلعه: (يهوى المختار المهدي) وكذلك اغنية (زوروني بالسنة مرة) التي كانت هي الاخرى موشحاً في مدح الرسول مطلعه (زر قبر الحبيب مرة) وهكذا.

وقد درس على هذا الشيخ في العراق عدد كبير من الطلاب الذين اختصوا بالالحان والمقامات والغناء نذكر منهم محمد علي خيوكه المتوفى سنة ١٩٠٨م وحسين علي الصفو المتوفى سنة ١٩١١م وعبد الرزاق القبانجي المتوفى سنة ١٩٣١م والحاج سلو الجزمجي المتوفى بالموصل سنة ١٩٣٣ والسيد أحمد عبد القادر الموصلي المتوفى بالموصل سنة ١٩٤١م والملا مبارك المتوفى سنة ١٣٣٠هـ والحاج أحمد بن الملا كاظم بن دبيس المتوفى سنة ١٣٣٥هـ وأحمد بن شعبان المولود سنة ١٨٩٨م والحاج محمد بن سرحان المتوفى بالموصل سنة ١٩٤٩م وعبد الفتاح معروف المولود سنة ١٨٩١م وحسين النمنم بن علي المولود ببغداد سنة ١٨٨٠م والسيد محمود الهاشمي المولود سنة ١٨٩٧م والحاج عبد القادر بن عبد الرزاق المولود ببغداد سنة ١٨٩٥م والحاج محي الدين مكي المتوفى سنة ١٣٦٢هـ والسيد محمد وحيد الدين بن الشيخ أحمد القادري والملا الكور رشيد ومحمود بن الطحانة ورشيد أبو ندر وشهاب بن شعبان وغيرهم، وقد اختص عدد من هؤلاء بقراءة الموشحات والمواليد فقط.

وقد نهض الملا عثمان بفن الموشحات وعمل على تطويره وهو الذي تربع على عرشه خلال فترة طويلة من الزمن ولم يزاحمه فيه احد وكان لهذا الفن عشاقه الكثيرون وما يزال العراقيون يذكرون حفلات المولد التي يقيمها هذا الفنان فكانوا يتزاحمون لسماعه ويتوافدون عليه من كل حدب وصوب.

والموشحات او التواشيح او التنزيلات فن قديم من فنون النغم يختلف عن الاغاني والمقامات والموالاة والأدوار بأشياء منها ان الموشحات تعتمد على نوع خاص من النظم هو (الموشح) ذو الاوزان القصيرة والقوافي المختلفة وتكون له بالعادة اسماط واغصان، اما الحانها فهي معقدة لا تعتمد على الاسترسال الغنائي بل على اختلاف الخانات، ويبرز فيها الايقاع بشكل ظاهر وتستعمل الموشحات غالباً في الغزل والمديح.

وقد كان الملا عثمان في فن الموشحات مدرسة كاملة بحد ذاته فهو الذي ينظم الموشحات ويلحنها لطلابه ومريديه لينشدوها في الحفلات والمجتمعات ثم تتناقلها الافواه في كل مكان وتنتشر في سائر البلاد مع القوافل السارية.

كان عثمان الموصلي ينبوعاً للالحان وقيثارة للنغم وعلماً فرداً في الموسقى في بلاد الشرق خلال فترة تمتد من الربع الاخير للقرن التاسع عشر حتى اوائل القرن العشرين وله فضل في تطوير الموسيقى العربية وتجديدها.

عثمان الموصلي في بغداد

محمود العبطة

الحافظ عثمان لم يقصر صلاته على الخواص والعلماء وأهل الجاه بل كان يحب الاختلاط بالعامة من ابناء بغداد حيث يعبر الجسر ويجلس في رأسه من جانب الكرخ ليسمع غناء البقال ابن دوكه الحبشي وهو يغني لعذوق التمر في دكانه:

عدد على امه وناح
بين السواجي والنخل طاح

فيأخذ الشيخ بالبكاء على غناء ابن دوكه الشجي وهو يغني للباعة على تمره، ويتجه الى سوق الجديد ليجلس عند دكان الاخوين الحاج أحمد معروف واخيه تلميذه عبد الفتاح ، ثم يقصد دكان صالح النجار في محلة ست نفيسة الذي كان يكتب قصائد الملا ويؤطرها ويعلقها في دكانه على ما اخبر الكاتب السيد عبد الكريم سيد عبود وكثيراً ما يذهب الى شريعة خضر الياس لياكل الباجة عند ابن طوبان.

وللحافظ في بغداد نوادر كثيرة لا تستوعبها هذه الرسالة تدل على ذكاء وألمعية وسرعة بديهة، منها انه كان يلعب على جميع الآلات الموسيقية المعروفة باتقان ويلعب (الدامة والشطرنج) مع انه كما يعلم القارئ كفيف البصر ومنها انه لا ينسى إنساناً اذا صافحه مرة واحدة بل يعرفه مهما امتد الزمن وانه اذا سمع إنساناً فيقدر عمره على نوع الصوت، ويذكر صديقه الاستاذ عبد اللطيف ثنيان انه مر معه ليلة في سوق وبينما نحن نسير ونتحدث اذ ضربت بعصاي باب حانوت وقلت له: هذا حانوت صاحبك فلان فقال كلا.. بل حانوته الاخر الذي يلصقه، ويذكر ثنيان نادرة اخرى انه كان في دار احد السادة الكيلانيين وكان هناك احد المولوية وهو يقرأ ويمد رأسه تارة ويقلبه يميناً ويساراً تارة اخرى ولم يسكت فضجر الشيخ عثمان وصاح.. يا غلام هات دنبكاً!! فأتاه به ونحن نظن انه يريد الضرب عليه، اذا به يضربه فخرق الجلد وجعله على رأسه يقلد به قلنسوة المولوية واخذ يقرأ ويتواجد مقلدا الرجل اعظم تقليد حتى مللنا من الضحك.

ومنها انه كان يجري اختبار قراء القرآن في جامع الخفافين وهناك قارئ بصوت غير مقبول فأراد افهامه ذلك فقال له: (تصورني ميت واقره علي)، فامتد في المجلس بطوله وعرضه وضخامة جسمه.

ومنها ما ذكره الاستاذ عبد الحميد السيد حمودي للمؤلف انه شاهده في جامع الخفافين يعلم احد القراء التجويد وهو يقرأ بصوته العذب الحنون وكان يلتهم الكباب والخبز في وقت واحد.

وأخيراً نسجل انه لا يقرأ منقبة نبوية الا ويقبض مقدماً ليرة ذهبية وبقيت هذه طريقته على الرغم من صدور الأوراق النقدية في اواخر عهد العثمانين وبعد الاحتلال.

وللملا عثمان الموصلي مواقف وطنية في وجه المستعمر الانكليزي وذلك بعد ان أجمعت الاحزاب الوطنية كجمعية العهد وحزب الحرس والشباب الوطني في بغداد على تهيئة الجو للثورة الوطنية المقدسة في عام ١٩٢٠ وشحذ همم الجماهير لها حيث كان يخطب في الجماهير في الاجتماعات الشعبية في جوامع بغداد الكبيرة كجامع الحيدر خانة وجامع شيخ صندل وجامع براثا وجامع الكيلاني وجامع سيد سلطان علي وجامع الخلاني، بعد ان يقرأ نتفا من حياة الرسول وجهاده في سبيل العقيدة والرسالة بصوته الساحر الجذاب.

وقد حضر أول اجتماع عام في اخر ليلة من شهر شعبان سنة ١٣٣٨ هـ ١٩٢٠م وفي أهم اجتماع في جامع الحيدر خانة في ليلة ٦ رمضان قرأ الحافظ القصة النجدية وغنى الاشعار بالمناسبة في الجامع الكبير.

وهنا يصف المرحوم الاستاذ ناجي القشطيني هذا الاجتماع التاريخي وصف عيان ومشاهدة، قال وافتتح الاحتفال بآيات من الذكر الحكيم واعقبها المقرئ المعروف المغفور له الحافظ عثمان الموصلي بتلاوة المنقبة النبوية الشريفة ويحمس الناس، ثم تعاقب بعده الخطباء والشعراء وتطور الحفل الى مظاهرة صاخبة هز صداها ارجاء العاصمة وتعداها الى سائر الانحاء العراقية.

ويذكر السيد عبد الكريم السيد عبود في حديث له مع المؤلف انه كان يحضر كافة الاجتماعات في الجوامع بهذه المناسبة ويقرأ المنقبة النبوية ويصور جهاد سيدنا الحسين ثم يخطب بالجماهير المحتشدة.

ويذكر السيد أحمد عزت المصرف للمؤلف أيضاً انه شاهده يخطب ويقرأ المولود النبوي في جامع الشيخ الكيلاني وجامع الخلاني في بغداد، ويشير المرحوم العلاف في مقالته في مجلة المناهل البغدادية انه اخذ يخطب الناس في جامع الحيدر خانة ويحثهم على المطالبة بالاستقلال.

وبقى الرجل عاكفاً على عمله في تدريس التجويد في جامع الخفافين وقد يطيب له المبيت في غرفته في الجامع او يذهب الى بيته او يتجول في بغداد في الجانبين يزور احبابه واصدقاءه يداعب هذا او يلاعب ذاك او يلقي درساً في الغناء او العروض على اخر، وصار بغدادياً بعد ان احب القوم واحبوه حتى انه لم يتحدث مع تلامذته واصدقائه بلهجة أبائه وأجداده بل كانت لهجته بغدادية نقية وان زيه الموصوف في هذه الدراسة وهو زي المولوية قد غيره واخذ يلبس في رأسه الكشيدة البغدادية على ما يقول الأستاذ محمد الاثري في دراسته عنه وذلك قبيل وفاته بثلاثة اعوام.

انه عبقرية نادرة من عباقرة بغداد العظيمة في الجيل الماضي رقق الأذواق وأزاح الهموم وبث روح الصفاء والإخاء بين المواطنين واعطى درساً في الوطنية الصحيحة عندما كان يخطب في الجوامع وتذرف عيناه في الدموع يدعو اهل بغداد على مناهضة المستعمرين قبل اشتعال الثورة العراقية الباسلة.